وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة تكريت
كلية التربية للعلوم الإنسانية
قسم التاريخ

المرحلة: الثالثة

المادة: فلسفة التاريخ

العامل الجغرافي

أ. د. مثنى عباس عواد

العامل الجغرافي:

يعد بعض المؤرخين في تعليلاتهم لأحداث التاريخ الجزئية، وفلاسفة التاريخ في تفسيراتهم لمسار التاريخ العام، الظواهر الجغرافية المختلفة ذات أثر بارز في تشكل الأحداث التاريخية وارتسام الملامح التي اتخذها التاريخ البشري أو التي سيتخذها في المستقبل، وذلك لما لتلك الظواهر من تأثير ملموس في الإنسان صانع تلك الأحداث وذلك التاريخ، فطبيعة الأرض والمناخ والموقع الجغرافي لا تنفك تؤثر في تكوين الإنسان وأخلاقه وقدراته العملية وملكاته العقلية والإبداعية، ومن ثم تدفع بتاريخه أن يتخذ وجهة معينة، فالجغرافية توجه التاريخ من وجهة نظر هؤلاء القائلين بـ (حتمية) البيئة الجغرافية في تفسير التاريخ.

ويسوق هؤلاء أمثلة كثيرة تفسر حركة التاريخ بإرجاعها إلى تأثيرات الجغرافية، منها أن (المعارك) التي أرغمت نتائجها التاريخ أن يتخذ وجهة معينة، كان سيرها – ومن ثم نتائجها – يرتبط بتضاريس الأرض وكونها جبلية أو سهلية أو ذات طبيعة جغرافية معينة كوجود المستنقعات أو المواقع المائية أو الأحراش فيها، فضلاً عن وضع الطقس الذي كان سائداً خلال الوقت الذي حدثت فيه تلك المعارك، فهناك معارك وحملات حربية تأثرت نتائجها بالأوضاع الجغرافية، منها حملة تيمورلنك على الدولة العثمانية، فعلى الرغم من انتصار تيمورلنك في معركة أنقرة سنة ١٤٠٢م التي خاضها ضد السلطان العثماني بايزيد الأول وقيامه بأسر هذا السلطان، فإن البحر أعاق تقدم تيمورلنك نحو الجزء الأوربي من الدولة العثمانية، ومن ثم لم يمكنه من القضاء عليها رغم أنها كانت دولة ناشئة آنذاك، فاستطاعت الدولة العثمانية أن تستعيد مكانتها بعد إحدى عشرة سنة انقضت في الصراع بين أبناء بايزيد الأول قبل أن يتمكن ابنه محمد من الفوز بالسلطة وإعادة توحيد الدولة في نهاية المطاف سنة ١٤١٣م.

وهكذا يرى التفسير الجغرافي للتاريخ أن شكل التاريخ الحديث كان سيتغير في كثير من ملامحه، ويتخذ مساراً حركياً آخر لولا أن يقف (البحر) عائقاً ويمنع تيمورلنك من القضاء على الدولة العثمانية.

وعلى هذا المنوال يمكن القول إن هناك معارك وحملات حربية عديدة أخرى، حددت الجغرافية نتائجها، وتحكمت من ثم في مسيرة التاريخ على ضوئها، تذكر منها حملات العرب المسلمين التي انطلقت من الأندلس لفتح فرنسا والتوغل في أوربا وأخفقت في تحقيق أهدافها لسبب رئيس يتعلق بالطبيعة الجغرافية الجبلية والمناخية، التي تتصف بها المنطقة التي تفصل

بين اسبانيا وفرنسا، ووقوفها حائلاً أمام توغلهم في أوربا الذي كان من الممكن أن يغير مسار التاريخ الأوربي.

ومنها الحملات العديدة التي شنها المسلمون خلال أكثر من سبعة قرون للاستيلاء على القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية، فقد أخفقت تلك الحملات جميعاً قبل أن تنجح في عام ١٤٥٣م حملة السلطان العثماني محمد الثاني، بسبب موقع المدينة الجغرافي الحصين على جانبي مضيق البسفور، وتقسيم القرن الذهبي لجانبها الأوربي إلى نصفين، وتحصن المدينة من طرفيها الآخرين الشمالي والجنوبي ببحري إيجه والأسود، إذ أدى ذلك كله إلى صد الحملات عليها، وأطال عمر الدولة البيزنطية لعدة قرون كانت تفتقد خلالها لمقومات وجودها كدولة، وتدخل حملة السلطان العثماني سليم الأول على بلاد فارس في هذا الإطار من التفسير التاريخي، ذلك أنها أخفقت في القضاء على الصفويين على الرغم من انتصاره عليهم في معركة جالديران سنة ١٥١٤م لعدم تمكن السلطان العثماني مواصلة الحملة بسبب الظروف المناخية القاسية ووعورة الأرض.

كذلك كان المناخ عاملاً أساسياً في التحكم في مصير معارك عديدة، مما ترتب على ذلك أن تتخذ الأحداث التاريخية مساراً معينا دون غيره، فشتاء روسيا الفارس بصقيعه ووحوله وثلوجه كان يقف حائلاً في كثير من الأحيان أمام تقدم الغزاة، فأعاق على سبيل المثال الغزو النابليوني لروسيا سنة ١٨١٢م، وأجبر الجيوش النازية على التقهقر شتاء بين عامي (١٩٤١ – ١٩٤٢) بعد أن هبطت درجة الحرارة في الأراضي الروسية آنذاك إلى ٤٠ درجة تحت الصفر.

ويذكر القائلون بتحكم العامل الجغرافي في التاريخ أمثلة أخرى عديدة لتعزيز آرائهم، منها تأثير الأراضي الخصبة ذات المياه الوفيرة في نشاط الإنسان ونشأة الحضارات ومسيرة التاريخ كالأراضي التي قامت في ربوعها حضارتا وادي الرافدين ووادي النيل والحضارة الصينية وغيرها من الحضارات التي تدين بوجودها وتقدمها إلى خصوبة الأرض ووفرة المياه، وفي مقابل ذلك فإن جدب البيئة الجغرافية وجفافها كان عاملاً من عوامل صنع تاريخ بعض الشعوب، إذ أن مثل هذه البيئة في آسيا الوسطى دفعت بقبائل الأتراك العثمانيين إلى الهجرة باتجاه الغرب وتكوين الدولة العثمانية.

ومن تلك الأمثلة ما يلعبه الموقع الجغرافي من دور كبير في تطور حضارة كثير من البلدان وتوجيه مسار تاريخها، فالموقع الجغرافي الذي يتميز مثلاً بأهميته للتجارة ولطرق

المواصلات العالمية كان على مر العصور فاعلاً في تحديد ملامح تاريخ كثير من الدول كمصر والعراق وعدن وعمان وغيرها من الدول.

من جانب آخر، يمكن القول إن التفسير الجغرافي للتاريخ يرجع في بداياته وتصوراته الأولى إلى عهود النشاط الفلسفي والفكري اليوناني، فهو انعكاس لأحد مظاهر ذلك النشاط الذي كان دائب التطلع لاكتشاف الكون والإنسان وتفسير ظواهر الوجود وحركة الإنسان، فضلاً عن استكناه ما وراء الطبيعة، ذلك أن النصوص اليونانية تنقل لنا أن (هيبوكراتس) دوّن في القرن الخامس قبل الميلاد ما يفيد أن البيئة الجغرافية متمثلة في المناخ وطبيعة الأرض لها دور في بلورة طبائع الإنسان وتكوينه الجسمي وصفاته كالشجاعة والعنف والاستكانة، مما يعني بالنتيجة تشكل تاريخ الأمم على وفق نوعية الإنسان الذي تحكمت في صياغته البيئة الطبيعية، ذلك أن هيبوكراتس يرى مثلاً أن "الآسيويين أقل نزوعاً للحرب... ويستكينون للطغيان أكثر من الأوربيين: إن النقص الملحوظ في روح سكان آسيا وشجاعتهم يعود بشكل رئيسي إلى التغير الموسمي في درجة حرارة تلك القارة".

ومنذ ذلك الحين كانت هناك آراء نسجت على المنوال نفسه تربط طبيعة الإنسان وصفاته ونشاطه بالبيئة الجغرافية، ومن ثم فهي لا تفسر حركة التاريخ بشكل مباشر ومقصود، إذ أنها تقتصر على بيان المؤثرات الجغرافية في الإنسان دون كيفيات تأثيرها في حركته ونشاطه عبر الزمان، منها آراء أرسطو التي تذهب إلى تأثر اليونان في صفاتهم وأخلاقهم بموقع بلادهم المتوسط ومناخها المعتدل، ومنها أفكار الجغرافي الروماني (سترابو ٥٤ ق.م – ٢٥م)، التي صنف فيها الأرض إلى مناطق حارة وباردة ومعتدلة، وبين أثر ذلك في قدرة الإنسان على العمل والتقدم.

بيد أن ابن خلدون قد طور فكرة تأثير الجغرافية في الإنسان فيما بعد، إذ تبنى بداية القول بتقسيم الأرض إلى أقاليم مناخية ثلاثة حارة وباردة ومعتدلة، ورتب على ذلك آثاراً ذات علاقة أكثر وضوحاً مع الإنجازات الحضارية للمجتمعات البشرية ومسيرتها التاريخية، فالأقاليم الثلاثة المعتدلة من وجهة نظره تتصف بتميز إنجازاتها من العلوم والصنائع والمباني والملابس والأقوات والفواكه بل والحيوانات، وجميع ما يتكون في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال، وسكانها من البشر أعدل أجساماً وألواناً وأخلاقاً وأدياناً، حتى النبوءات فإنما توجد في الأكثر فيها... وأهل هذه الأقاليم أكمل لوجود الاعتدال لهم فتجدهم في غاية من التوسط في

مساكنهم وملابسهم وأقواتهم وصنائعهم يتخذون البيوت المنجدة بالحجارة المنمقة بالصناعة ويتناغون في استجادة الآلات والمواعين ويذهبون في ذلك إلى الغاية.

وهذه المنجزات الحضارية لا تكون من وجهة نظر ابن خلدون لسكان الإقليمين البعيدين عن الاعتدال، والإقليمين الأكثر بعداً عن الاعتدال وهما الإقليمان الحار والبارد، ويسهب ابن خلدون في وصف سكان هذه الأقاليم الأربعة وتدفي مستوى منجزاتهم الحضارية قياساً على حضارة أهل الأقاليم المعتدلة الثلاث "الذين كانت فيهم النبوءات والملك والدول والشرائع والعلوم والبلدان والأمصار والمباني والفراسة والصنائع الفائقة"، ويشرح كذلك تأثيرات الهواء والرطوبة وخصوبة الأرض وجدبها ونوع الغذاء في الأخلاق والطبائع والعمل وعقل الإنسان وتوقد ذهنه.

وهكذا يمكن أن نستنتج من ذلك كله أن ابن خلدون كان يشير إلى أن المنجز الحضاري، وحركة الأمم ومسيرتها عبر مراحل التاريخ تأثرت بالعامل الجغرافي، ومع ذلك فإننا لا نستطيع القول، على خلاف ما يراه بعض الباحثين أن ابن خلدون تبنى اتجاه (الحتمية الجغرافية) في تفسير التاريخ، ذلك أن نظرية (العصبية والدولة) ترجع قيام الدولة إلى عوامل متعددة.. اجتماعية واقتصادية ودينية.

وظهر في العصر الحديث مفكرون وفلاسفة كانوا يرون أيضاً أن العامل الجغرافي له علاقة وثيقة بأخلاق الناس ونشاطاتهم وحياتهم السياسية والاجتماعية، وكان أبرز هؤلاء البارون شارل دي مونتسكيو (١٦٨٩ – ١٧٥٥) الذي تأثر بأفكار جان بودان (١٥٣٠ – ١٥٩٦) في هذا المجال، فعدّ في كتابه (روح القوانين) الذي صدر سنة ١٧٢٨، الطبيعة الجغرافية ولاسيما المناخ عاملاً أساسياً في حياة الأمم له علاقة وثيقة بطابع كل أمة منها، وبشرائعها ونظامها الاجتماعي والسياسي، بما يعني أن الجغرافية لها دور كبير في توجيه التاريخ، فالمناخ الذي خصه مونتسيكيو بالاهتمام وعده (أبدي التأثير)، له دور في تحديد سياسة الدولة، إذ أن المناخ الحار عنده يقود الإمبراطوريات والممالك إلى الاستبداد، ويقود الإنسان إلى الضعف والخنوع والعبودية، والمناخ المعتدل يجعلها معتدلة ويجعل أهلها أحراراً يتصفون بالقوة والشجاعة وحب الحرية.